إجلاء النبي ﷺ لليهود من المدينة
(2 – 5هـ)

أ.د. محمد بن فارس الجميل
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة الملك سعود
الرياض
1428هـ

إجـــلاء اليهـــود من المدينـــة

الوجود اليهودي في يثرب :

ليس لدينا تاريخ محدد وثابت عن بداية وجود اليهود في يثرب ولا حتى عن أصل أولئك اليهود ولكن لا بأس من الإشارة إلى ما ذكرته بعض المصادر عن نزوح بعض القبائل اليهودية إلى يثرب واستيطانها.

ذكر ابن ر سته (توفى بعد سنة 310هـ) وهو ربما يعد من أقدم المصادر التي حاولت الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بوجود اليهود في يثرب ، إلى أن وجودهم فيها يعود إلى أيام النبي موسى عليه السلام ، عندما أرسل حملة عسكرية من بني إسرائيل إلى الحجاز لتأديب العماليق الذي طغوا في الهلاد وعتوا عتواً كبيرا ، فكان هذا أول سكن اليهود للحجاز بعد العماليق.

ثم خرجت قريظة وأخوتهم بنو هدل وعمرو بن الخزرج بن الصريح وبنو النضير من الشام إلى يثرب حيث تبعوا اليهود الأوائل ، فنزلوا العالية على واديين يقال لهما مذينيب ومهزور ، فنزلت بنو النضير مذينيب واتخذوا عليه الأموال ونزلت بنو قريظة وهدل على مهزور واتخذوا عليه الأموال ، وكانوا أول من احتفر بيثرب الآبار واغترس الأموال . ثم يضيف ابن رسته إلى هذا القبائل جماعات أخرى من اليهود وهي: بنو ضخم وبنو زعوراء وبنو ماسكة وبنو القمعة وبنو زيد اللات ، وهم كما يقول ابن رسته رهط عبد الله بن سلام (!) وبنو قينقاع وبنو حجر وبنو ثعلبة وأهل زهرة وأهل زبالة وأهل يثرب وأهل القصيص وبنو ناغصة وبنو عكوة وبنو مزاية.

ويقدم لنا أبو الفرج الأصفهاني (ت : 356هـ) رواية لا تختلف كثيراً عن رواية ابن رسته فيما يتصل ببداية الوجود اليهودي بالحجاز وعلاقته بالحملة التي يقال أنه قد أرسلها نبي الله موسى لغزو العماليق.

ولكن لعل أحد وجوه الإختلاف بين روايتي ابن رسته والأصفهاني ، هو أن الأصفهاني يعزو انتقال بني النضير وقريظة وبهدل [بنو هدل] من الشام إلى يثرب إلى حادثة إستيلاء الروم على بلاد الشام وتغلبهم على اليهود بينما ابن رستة يربط بين نزوح هذه القبائل وبين حملة النبي موسى على الحجاز .

ويوضح ولفنسون حادثة إنتقال اليهود من الشام إلى الحجاز بقوله ، أنه بعد حرب اليهود والرومان في سنة (70 م) التي انتهت بخراب فلسطين ودمار هيكل بيت الم قدس وتشتت اليهود في أصقاع العالم قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب . وكذلك فإن موشيه جل Moshe Gil يميل إلى القول أن اليهود دخلوا الحجاز واستوطنوها على فترتين من فترات الغزو الروماني لفلسطين وذلك في سنة (70م) واحتمالاً في سنة (135م).

واضح من هذا أن كلا من الباحثين يرفضان ضمنياً قبول الروايات القائلة إن الوجود اليهودي في الحجاز يعود إلى أيام نبي الله موسى عليه السلام .

على كل ، إذا كان من الممكن التسليم بأن اليهود دخلوا الحجاز فيما بين عامي (70م - 135م) وهو افتراض لا يخلو من الصحة لارتباطه بأحد اث تاريخية وقعت في الشام لا يمكن تجاهلها ، فإنه ليس من السهل التسليم أيضاً بالروايات التي ترجع وجود اليهود في الحجـــاز إلى ما قبل الميلاد أي إلى أيـــام نبي الله موسى عليه السلام لأسباب يطول شرحها .

وبالنسبة للسؤال المتعلق بأصول هذه القبائل والبطون فيما إذا كانت عبرانية الأصل أم أنها قبائل عربية تهودت ؟ فإنه ليس بالمستطاع تقديم إجابة شافية عن هذا السؤال ، حيث أن أسماء هذه القبائل والبطون أسماء عربية ، وقد ذكر اليعقوبي (ت : 284هـ) في تاريخه أن أغلب الطوائف اليهودية في الحجاز من العرب المتهودة . لذلك فإن مرجليوث Margoliouth لم يجد في أسماء هذه الجماعات اسماً يحمل الملامح العبرانية غير اسم قبيلة زعوراء ، وتابعة على ذلك جواد علي .

ومن الطريف الإشارة هنا إلى أن زعوراء ، بطن من بطون الأوس من ولد جشم من بني عبد الأشهل. لذلك فإنه ليس سهلاً التوفيق بين زعوراء اليهودية وزعوراء بني عبد الأشهل (!) ولابد أن الأمر لا يخلو من لبس .

أما موشية جل فلا يستبعد وجود صلة بين القبائل البدوية المشهورة من جذام في أرض مدين الذين يعرفون بأبناء ثيرون وكذلك يهود الحجاز وذلك لأوجه الشبه الكبيرة بينهم .

ولكن فيما يتعلق بأصل قبيلتي بني النضير وقريظة ، فإن اليعقوبي وهو أحد أقدم المصادر التي ناقشت أصلهم ، فيزعم أن لهم أصولاً عربية ، حيث أن بني النضير فخذ من

جذام ، قيل أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير ، فسموا به . وكذلك بنو قريظة هم حسب رأي اليعقوبي فخذ من جذام ، ويقال إن تهودهم كان في أيام السموأل بن عاديا ، ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه. ولم يقدم اليعقوبي دليلاً واحداً يثبت صحة ما ذهب إليه .

وعلى النقيض من ذلك فإن ابن رستــه يرجع نسب قريظـــة والنضير إلى نبي الله هارون بن عمران عليه السلام وتابعة في ذلك أبو الفرج الأصفهاني ، فذكر أن بني قريظة والنضير يقال لهم : الكاهنان ، وأنهم من ولد الكاهن ابن هارون بن عمران أخي موسى بن عمران عليه السلام . وكانوا بنواحي يثرب بعد وفاة نبي الله موسى.

وحسب ما ذكره جواد علي فإن كلاً من نولدكة Noldeke وأوليرى Oleary لا يستبعدان كون بني النضير وقريظة من طبقة الكهان في الأصل ، هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التي وقعت فيها فسكنوا في هذه الديار ، أي الحجاز.

أما بنو قينقاع فهم القبيلة الثالثة من القبائل اليهودية المشهورة التي كانت في المدينة عندما هاجر إليها الرسول ﷺ ولا نعرف الشيء الكثير عنها ، سوى أنها إحدى القبائل اليهودية الثلاث بالمدينة ، وأنها أول قبيلة يهودية نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ بعد معركة بدر ، وأن أحد أحبارها وأصحاب السيادة فيها ، الحصين بن سلام ، كان أول من أسلم من يهود ، وأن رسول الله ﷺ أسماه عبد الله.

ولعل ما يرجح كون بني قينقاع عبرانيون أصلاً هو ما جاء في ترجمة عبدالله بن سلام عند ابن حجر ، الذي لم يذكر مصدره ، فقد قال عنه : "عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ذرية يوسف النبي عليه السلام ، حليف القواقل من الخزرج ، الإسرائيلي ثم الأنصاري ، كان حليفاً لهم ، وكان من بني قينقاع".

أما أم المؤمنين صفية بنت حيي (ت : 52هـ) فنسبها في كلتا القبيلتين بني النضير وبني قريظة ، حيث أن أباها حيي بن أخطب من بني النضير وأمها برة بنت سموأل من بني قريظة . وحسب بعض الروايات فإن رسول الله ﷺ قد شه د لها بصحة نسبها

الإسرائيلي وعراقة أصلها ، فعندما استبت أم المؤمنين عائشة وصفية ، قال رسول الله ﷺ لصفية : " ألا قلت أبي هارون وعمي موسى ".

لذلك فإذا كانت صحة نسب البطون اليهودية ومصيرها لا يزال محل خلاف بين ذوي الاختصاص من المؤرخين وغيرهم فإن صحة نسب يهود بني النضير وقريظة وقينقاع أقل إشكالاً ، فهم بقايا من أهل الكتاب من بني إسرائيل في الحجاز . وهذا على الأقل ما يفهم من بعض نصوص القرآن الكريم وما يروى عن الرسول ﷺ.

1 - إجلاء يهود بني قينقاع :

بنو قينقاع إحدى القبائل اليهودية الثلاث المشهورة في المدينة ، وكانوا حلفاء للخزرج وقاتلوا إلى جانبهم ضد إخوانهم من يهود قريظة يوم بُعاث . ثم لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وادع يهودها وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم . وذكر ابن حجر في الفتح نقلاً عن ابن إسحاق أن النبي ﷺ وادع اليهود لما قدم المدينة وامتنعوا من اتباعه فكتب بينهم كتاباً وكانوا ثلاث قبائل : قينقاع والنضير وقريظة.

وذكر الواقدي رواية عن ابن كعب القرظي أكثر تفصيلاً ، قال : " لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وادعته اليهود كلها ، وكتب بينه وبينها كتاباً ، وألحق رسول الله ﷺ كل قو م بحلفائهم وجعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً ، فكان فيما شرط ألا يظاهروا عليه عدواً.

ويظهر من روايات السيرة أن قبيلة بني قينقاع كانت أول القبائل اليهودية التي أسلم بعض أفرادها إما عن إيمان ويقين مثل حبرهم عبد الله بن سلام أو تعوذاً بالإسلام وهم يضمرون النفاق . وقد ذكر لنا ابن إسحاق ثمانية من كبار أحبارهم الذين اشتهروا بالنفاق.

إن لمتتبع للعلاقة بين الرسول ﷺ وبني قينقاع في المرحلة الأولى يظن أن الأمر ربما ينتهي بإسلام معظم بني قينقاع لاسيما أن سيدهم وكبير أحبارهم عبد الله بن سلام كا ن قد أعلن إسلامه في الأيام الأولى لمقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ولكن الغريب في الأمر أن العلاقة بين الطرفين لم تتطور أو تصل إلى المستوى المرجو بل سارت على النقيض من ذلك !

إن أولى الروايات التي تتعلق بما حدث بين الرسول ﷺ وبني قينقاع ما ذكره ابن إسحاق من أنه فيما بين بدر وأُحد جمع رسول الله ﷺ بني قينقاع في سوقهم ، ثم قال :

" يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ،وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم " . قالوا: " يا محمد إنك ترى ، أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس".

ثم ذكر ابن إسحاق آيتين من سورة آل عمران وقال أنهما نزلتا في بني قينقاع وهما قوله تعالى : **(قُلْ لِلَّذين كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)** [آل عمران : 12] .

وقوله تعالى : **(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيةٌ في فئَتَيْن)** [آل عمران : 13] .

ثم يردف ابن إسحاق قائلاً : إن عاصم بن عمر بن قتادة حدثه أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحد . فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه . ثم يشير ابن إسحاق بعد ذلك إلى تدخل عبد الله بن أُبي بن سلول لصالح بني قينقاع ، حيث منّ عليهم الرسول ﷺ وقال لابن أُبي ، " هم لك " وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة.

من الملاحظ أنه في أثناء عرض ابن هشام لرواية ابن إسحاق المتعلقة ببني قينقاع يضيف في السياق رواية لعبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عون لم ترد عند ابن إسحاق ومفادها أن امرأة من العرب ذهبت إلى سوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ هناك فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها وهي تأبي ثم عمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قام ت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

ويقدم الواقدي أكثر من رواية لتفسير سبب الصدام الذي وقع بين النبي ﷺ ويهود بني قينقاع . الرواية الأولى ينتهي سندها بابن كعب القرظي وهي لا تختلف كثيراً في تفاصيلها عن رواية عبد الله بن جعفر، التي ساقها ابن هشام ومفادها أنه لما عاد رسول الله ﷺ من بدر (2هـ). منتصراً بغت اليهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد .

أما الرواية الثانية للواقدي التي نقلها عن الزهري عن عروة ، فهي تكاد تكون على النقيض من الرواية الأولى ، قال : لما نزلت هذه الآية :

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ۝ [الأنفال:58].

فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية . فحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار إلى هلال ذي القعدة سنة (2هـ) حتى قذف الله في قلوبهم الرعب . قالوا : أفننزل وننطلق ؟ فقال رسول الله ﷺ لا ، إلا على حُكمي ! فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فربطوا . قال : فكانوا يكتفون كتافاً ... ثم توسط في شأنهم عبد الله بن أُبي بن سلول فأطلقوا وكانوا أربعمائة دارع وثلاثمائة حاسر . وقال رسول الله ﷺ: لعنهم الله ولعنه معهم وأمر بهم أن يجلوا من المدينة.

ليس في الروايات التي سبق عرضها ما ينبئ على وجه دقيق عن طبيعة الجُرم الذي ارتكبه يهود بني قينقاع ، حيث إن قصة المرأة في سوق بني قينقاع لا تعد من الناحية المنطقية سبباً كافياً لمعاقبة بني قينقاع . أما أن يتحرش اليهود بالرسول ﷺ وأصحابه بعد مرجعه من بدر منتصراً واستدراجه للحرب فأمر مستبعد تماماً، فلو أن ذلك تم قبل بدر لأمكن قبوله ولو تم بعد غزوة أُحد لأصبح أكثر قبولاً لاسيما أن وضع الرسول السياسي أصبح حينذاك حرجاً وذلك من الناحية العسكرية على الأقل فقد أصبح أقل قوة منه في يوم بدر مما أغرى الأعداء بالنيل من هيبة المسلمين. أما بعد بدر فإن الأمر صار مختلفاً تماماً ومن المستهجن أن يحدث مثل هذا التصرف من اليهود لأنه يدل على الطيش والحمق وقصر النظر . ثم ماذا فعلوا بعد أن أغروا الرسول ﷺ بقتالهم ؟ لقد نبذوا العهد ، وأعلنوا الحرب ، وأغلقوا دونهم أبواب حصونهم ، وهل تكون الحرب بهذه الصفة ؟ أي أن يعتصمون بحصونهم ! ويفرضون على أنفسهم الحصار حتى يستسلموا لحكم الرسولﷺ ؟

إن أمر بني قينقاع وما وقع منهم تجاه المسلمين وما نتج عن ذلك من عقوبة لهم لا يزال في نظر أي باحث مدقق بحاجة إلى مزيد من الاستقصاء ، ومن المؤسف أن المصادر المتوافرة للبحث حالياً لا تسعف في الخروج برأي دقيق حول ما حدث . ولابد أنهم قاموا بجرم كبير أكبر مما تذكره المصادر حتى استحقوا مصادرة الأموال وتجريدهم من السلاح وإجلائهم عن البلاد. بل قيل إن الرسولﷺ قد همّ بقتلهم. فمن المحتمل أنه في أثناء إنشغال الرسول في معركة بدر وبعد عودته منها أدرك مدى خطورة مجاورة بني قينقاع للمسلمين في المدينة ، وربما أنه قد بدر منهم في ذلك الوقت ما ينبئ عن ذلك إذ لا يستبعد أنهم كانوا

عيناً للعدو على المسلمين يدلونه على عوراتهم ويفضحون أسرارهم كما كانوا يسعون للدس بين المهاجرين والأنصار ، مما أدى إلى تأزم الأمر بين الفريقين حتى أص بح أقل حادث - كحادث السوق مع المرأة - كفيل بالغليان الشعبي. لهذا قام الرسول بطردهم من المدينة .

2 - إجلاء بني النضير :

ذكر أكثر من مصدر أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه . وقَبلَ رسول الله ﷺ ذلك منهم . وعلى الرغم من وجود هذا النوع من التفاهم على التعايش السلمي بين الطرفين ، فإن بعض علماء وزعماء بني النضير كانوا يضمرون العداء لرسول الله ﷺ ولجماعة المسلمين مثل : حُييّ بن أخطب وأخويه أبي ياسر بن أخطب ، وجُدي بن أخطب ، وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع وغيرهم.

ويبدو أن يهود بني النضير مثل بقية اليهود لم يكونوا سُعداء بما أسفرت عنه معركة بدر من نتائج ، حيث أعز الله المسلمين وكسر شوكه المشركين لذلك فما أن مضى شهران تقريباً على وقعة بدر ، حتى بدأت تظهر دسائس يهود بني النضير وتأليبهم على المسلمين . ولعل أول مؤامراتهم المكشوفة ضد المسلمين في المدينة هو ما حدث في غزوة السويق فقد جاء أبو سفيان على رأس قوة من فرسان قريش حتى نزل بالقرب من المدينة ، ثم توجه إلى بني النضير حيث استقبله سيدهم وصاحب كنزهم حينذاك سلام بن مشكم ، فقراه وسقاه وكشف له عن خبر المسلمين . فبعث أبو سفيان رجالاً من فرسانه فعاثوا فساداً في بعض نخيل المدينة وقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له . فما أن علم بهم رسول الله ﷺ حتى سار في طلبهم فبلغ قرقرة الكُدرولكن القوم فأتوه بعد أن تخففوا مما كانوا يحملون من أزواد السويق . فسميت غزوة السويق.

ثم إن كعب بن الأشرف هو أحد سادة بني النضير ، قد شرق بريقه وأغاظه نصر الله للمسلمين في بدر، فذهب إلى مكة مغاضباً ومحرضاً قريشاً على رسول اللهﷺ والمسلمين ، فأمر رسول الله باغتياله عند عودته من مكة إلى المدينة . وكان مقتله في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة.

وليس من المستبعد أن تحريض ابن الأشرف لقريش على رسول الله ﷺ هو الذي دفع بها إلى أن تكتب كتاباً إلى اليهود ، تستعديهم على رسول الله ﷺ والمسلمين ، فقد جاء عند الزهري أن قريشاً كتبت إلى اليهود بعد وقعة بدر : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم

لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم وهو " الخلاخل " شيء . فلما بلغ كتابهم اليهود ، أجمعت بنو النضير على الغدر ، فأرسلت إلى النبي ﷺ أن أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ولنخرج في ثلاثين حبراً حتى نلتقي في مكان كذا ، نصف بيننا وبينكم ، فيسمعوا منك ، فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنا كلنا.

وفي نهاية الرواية يكتشف الرسول ﷺ نية الغدر لدى بني النضير فيحاصرهم بالكتائب في اليوم الثاني، ويقول لهم : " لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه " ، فأبوا عليه ذلك ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء.

الملاحظ هنا أن هذه الرواية وإن كانت لا تخلو من القيمة التاريخية من حيث إشارتها إلى التآمر فيما بين قريش ويهود بني النضير ضد النبي ﷺ والمسلمين إلا أنه لا يمكن التعويل عليها لأنها تجعل وقت إجلاء بني النضير بعد بدر وقبل أُحد وهذا يخالف المشهور حيث أن المتواتر في الروايات التاريخية أن وقعة بني النضير وجلاءهم كانا بعد أُحد ، أي في أوائل السنة الرابعة للهجرة.

وذكر موسى بن عقبة سببين متعارضين لغزوة الرسول ﷺ لبني النضير أحدهما : أن الرسول ﷺ خرج يستعين ببني النضير في دية الكلابيين ، والسبب الثاني : أن بني النضير كانوا قد دسوا إلى قريش حين نزلوا أُحد (3هـ) لقتال رسول الله ﷺ فحضوهم على القتال ودلوهم على العورة ، فلما كلمهم رسول الله ﷺ في دية الكلابيين قالوا : أجلس يا أبا القاسم حتى تطعم وترجع بحاجتك ونقوم ونتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا له . ثم يذكر في نهاية الرواية أن بني النضير تآمروا على قتل رسول الله ﷺ ، وأن الله أوحى لنبيه بنية غدرهم فغادر المكان ، وعاد إلى المدينة ،وأن الله أمر رسوله بإجلائهم وإخراجهم من ديارهم فمضي رسول الله ﷺ لأمر الله تعالى فيهم فحاصرهم ، ثم قاضاهم على أن يجليهم ولهم أن يتحملوا بما استقلت به الإبل من الذي كان لهم إلا ما كان من حلقة أو سلاح . وكان إجلاء بني النضير في المحرم من السنة الثالثة للهجرة.

وكما هو واضح فإن هذه الرواية تختلف اختلافاً بيناً عن الروايات السابقة فيما يتعلق ببواعث غزوة بني النضير . فأحد البواعث هو طلب الرس ول منهم إعانته في دفع دية القتيلين من بني كلاب . أما الآخر فهو انحياز بني النضير لجانب المشركين من أهل مكة في غزوة أُحد.

أما الرواية الأكثر شيوعاً في مصادر السيرة النبوية فيقدمها لنا ابن إسحاق ، قال : " ثم خرج رسول الله ﷺ في دية ذينك القتيلين [الكلابيين] من بني عامر ، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري ، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ، فمن رجل يعلو هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، أحدهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عنهم . فأتي رسول الله - الخبر من السماء- بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فلما استلبث النبي ﷺأصحابه ، قاموا في طلبه حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أ رادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. لأنهم خانوه وتآمروا على قتله ، ولذلك فقد حاصرهم وأجلاهم عن المدينة بعد مصادرة ممتلكاتهم . وكان ذلك في السنة الرابعة من الهجرة.

إن الذي يمكن استنتاجه من كل ما سبق من الروايات ضعيفها وقويها أنها كلها تقريباً تتجه إلى اتهام يهود بني النضير بمحاولة الغدر برسول الله ﷺ والتآمر على حياته ، بل لم تبق المؤامرة في بعض الأحيان مقصورة على حياة الرسول ولكنها تتعداه إلى تهديد أمن المسلمين في المدينة عموماً مثل حادثة غزوة السويق وكذلك موقف بني النضير مع قريش في يوم أحد ، إن جاز لنا قبول هذه الرواية . وهناك بعض لروايات التي تحدثت عن حصار الرسول ﷺ لبني النضير وجلائهم ولكنها لم تقدم سبباً أو تفسيراً معقولاً لما حدث . ومثل هذه الروايات الأخيرة يصعب التسليم بها لأن الرسول ﷺ لا يمكن أن يقدم على عمل عسكري كهذا فيه طرد أقوام ومصادرة أموال بدافع رغبة شخصية خالصة لا غير . بل لابد وأن يكون هناك أسباب في غاية الوجاهة والخطورة دفعت الرسول الكريم لاتخاذ مثل هذه القرارات الصعبة في حق بعض الجماعات كاليهود مثلاً .

ولعل أفضل شهادة تدين يهود بني النضير ، هي ما نزل فيهم من آي الذكر الحكيم ، حيث نزلت فيهم سورة الحشر كاملة وعرفت عند بعض العلماء بسورة بني النضير ، أفاضت تلك السورة في بيان مساوئهم وإظهار معاييبهم ووصفتهم بالكفر وأنهم شاقوا الله

ورسوله . قال تعالى : ۞ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْ أَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الحشر:2-4].

إن قرار إجلاء بني النضير لم يكن وليد لحظة ، أي لم يكن قراراً متعجلاً، فلابد أنه كان نتيجة لتجاوزات متراكمة أقدم عليها بنو النضير بدءاً من انتصار الرسول ﷺ في بدر وما أعقب ذلك من نشاط بني النضير المحموم لدى قريش لإثارتها ضد المسلمين مروراً بأُحد وما قاموا به من تآمر مع قريش ضد المسلمين ، ثم موقفهم من دية قتلى بني عامر، هذه الأسباب مجتمعة يظهر أنها كانت وراء اتخاذ قرار إجلائهم عن المدينة ، لأن تعامل الرسول ﷺ معهم خلال أربع سنوات أثبت استحالة التعايش نظراً لأنهم أصبحوا خطراً يهدد أمن المجتمع واستقراره .

ثم لابد من التسليم بأن قرار نفيهم عن المدينة لم يكن قراراً شخصياً اتخذه رسول الله ﷺ بمحض إرادته ولكنه كان بتوجيه إلهي ، لقوله تعالى : هُوَ الَّذِ ي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّ عْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) [الحشر:2]

وما دام الأمر كذلك فلابد أنهم قد اقترفوا ذنباً يتناسب والعقوبة الإلهية التي حلت بهم .

3 - مصير بني قريظة :

جاء في رواية عند الواقدي ، أن رسول الله ﷺ ح ين قدم المدينة صالح قريظة والنضير ومن في المدينة من اليهود على أن لا يكونوا معه ولا عليه . ويقال صالحهم على أن ينصروه ممن دهمه منهم ويقيموا على معاقلهم الأولى التي بين الأوس والخزرج.

أما متى بدأت الأحداث تنحو منحىً خطيراً بين الجانبين فهذا أمر ليس م ن السهولة تحديده بفترة زمنية معينة . وقد وردت رواية عند البخاري لا تخلو من غموض حول تأزم

الأمر بين المسلمين واليهود في المدينة وفيهم بنو قريظة فذكر بسنده عن عبد الله بن عمر قال :

" حاربت النضير وقريظة ، فأجلى بني النضير وأقرّ قريظة ومَنَّ عليهم ، حتى حاربت قريظة ، فقتل رجالهم ، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحق بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم : بني قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بني حارثة وكل يهود المدينة.

هذا الحديث كما هو واضح فيه إجمال للعلاقة بين الرسول ﷺ واليهود في المدينة من جانبها السياسي وما آلت إليه من طرد وقتل، وليس فيها إشارة لزمن محدد . أما من الناحية التاريخية فإن بني قريظة امتنعوا عن مساعدة بني النضير عندما حاصرهم رسول الله ﷺ في السنة الرابعة للهجرة . ذكر الواقدي أن ابن أُبّي أرسل إلى ك عب بن أسد زعيم قريظة يحثه على الانضمام إلىجانب يهود بني النضير والوقوف معهم ولكن كعباً رفض مساعدة بني النضير قائلاً : لا ينقض من بني قريظة رجل واحد العهد . وفي رواية أخرى أنه قال : لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي ، واعتزلتهم قريظة ولم تُعنْهم بسلا ح ولا رجال ولم يقربوهم.

فمتى يا ترى وقعت تلك الحرب التي اشتركت فيها قريظة والنضير في جانب والمسلمون من الجانب الآخر . ثم لماذا يُطرد يهود بني النضير نتيجة لتلك الحرب وتبقى يهود بني قريظة ؟

جاء في رواية للزهري بسنده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مفادها أن اليهود من بني النضير طلبوا مقابلة الرسول ﷺ لمحاورته في أمور دينية ، وقد أضمروا الغدر برسول الله ﷺ وعندما اطلع على نيتهم - ذهب إليهم من الغد بالكتائب فحاصرهم ، وقال لهم : " إنكم لا تأمنون عندي ، إلا بعهد تعاهدونني عليه " ، فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب ، وترك بني النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم ، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء.

هذه الرواية لا تخلو من إشكال فيا ترى ما علاقة بني قريظة بمشكلة بـفي النضير مع رسول الله ﷺ ؟ ولماذا يطلب منهم رسول الله ﷺ كتابة عهد فيما بينهم ؟ إن رواية

الزهري موضع النقاش هنا ليس فيها أية إشارة لا من قريب ولا من بعيد إلى خيانة بني قريظة أو تحالفهم مع بني النضير .

ثم إن احتمال محاربة رسول الله ﷺ لكلتا القبيلتين في آ ن واحد يظل احتمالاً ضعيفاً ولابد من النظر لرواية الزهري مدار البحث بقدر من التحوط . لهذا فلا مناص من الافتراض أنه نتيجة لإجلاء بني النضير ومصادرة ممتلكاتهم بدأ بنو قريظة يتوجسون خيفة من قوة المسلمين المتنامية وربما أقدموا على ما يوجب تجديد العهد معهم . فقد جاء عند ابن سعد عن حُميد بن هلال أنه كان بين النبي ﷺ وبين قريظة " ولث من عهد " والولث: هو العهد غير المحكم والمؤكد، وقيل " الولث، العهد المحكم. ويميل كستر M.J. Kister ، إلى أن الإتفاق الذي كان بين رسول الله ﷺ وبني قريظة ، هو ولث عهد أي اتفاق غير محكم على التعايش السلمي بين الطرفين وهو أشبه ما يكون بالموادعة . ومعلوم أن الموادعة ، تعنى المصالحة، وتعنى أيضاً ترك الحرب والأذى . ومنه الحديث : " وكان كعب القرظي موادعاً لرسول الله ﷺ.

ويبدو أن مضمون ذلك الاتفاق أو " ولث من عهد " هو ما جاء عن د موسى بن عقبة في مغازيه على لسان عمرو بن سُعدى القرظي مخاطباً قومه بني قريظة في يوم الأحزاب : " يا معشر يهود إنكم قد حالفتم محمداً على ما قد علمتم أن لا تخونوه ولا تنصروا عليه عدواً وأن تنصروه على من دهم يثرب، فأوفوا على ما عاهدتموه عليه.

وقد يستشف من المقولة المنسوبة لعمرو بن سُعدي ، الأساس الذي بُنى عليه العهد أو الموادعة بين النبي ﷺ ويهود بني قريظة ، ويظهر في هذا العهد أو الموادعة أن هناك التزامات محددة يتعين على اليهود القيام بها ولكنها في المقابل لا تظهر مسؤولية المسلمين تجاههم . وليس من المستبعد أن مسؤولية المسلمين تجاه يهود بني قريظة مسؤولية ضمنية أي السماح لهم بالبقاء بالمدينة مع ضمان حمايتهم من أي اعتداء .

ويبدو أن رسول الله ﷺ قد أبرم مع يهود بني قريظة أكثر من عهد ، ثم ينقضونه ، فقد جاء في تفسير قوله تعالى : الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ۝ [الأنفال:56]

قال عنها المفسرون ، كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود قريظة فنقضوا العهد وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدوه ثانية ، فنقضوا ومالؤوا الكفار يوم الخندق وجاء عند الطبري في تفسيره لقوله تعالى : الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ۝ [الأنفال:56]

أي الذين يا محمد أخذت عهودهم ومواثيقهم ألا يحاربوك ولا يظاهروا عليك محارب أ لك ، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد ، ثم ينقضون عهودهم ومواثيقهم ، كلما عاهدوا دافعوك وحاربوك وظاهروا عليك وهم لا يتقون الله . وروى الطبري عن مجاهد في تفسير قوله تعالى الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ۝ أنهم قريظة ، مالؤوا على محمد أعداءه.

وهكذا يتبين من نصوص القرآن ومن أقوال جهابذة المفسرين أن يهود بني قريظة قلما يحترمون عهودهم مع رسول الله ﷺ وأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة . بل لعل إشارة المفسرين إلى مساعدة بني قريظة مشركي مكة بالسلاح أنها كانت يوم أُحد ، إن مثل هذه الإشارة قد تفسر تدهور علاقة المسلمين مع بني قريظة في أعقاب أحد وإجلاء بني النضير وأن الرسول ﷺ نتيجة لذلك طلب منهم كتابة عهد فيما بينهم، وهذا قد يُفسر أو يزيل بعض الغموض الذي يلاحظه الباحث في رواية الزهري التي سبقت مناقشتها . ولكن هل صمد هذا العهد طويلاً أو كما قال تعالى : **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** [البقرة:100]

الذي فسره عطاء ، أن المقصود بذلك العهود التي كانت بين رسول الله ﷺ وبينهم فنقضوها كفعل قريظة والنضير

ومن الواضح أن ذلك العه د الذي أبرمه رسول ﷺ مع بني قريظة في أعقاب أُحد وإجلاء بني النضير، لم يعمر طويلاً فكما ذكر السيوطي إنه بعد جلاء بني النضير بقيت قريظة بعدهم عاماً أو عامين على عهد بينهم وبين نبي الله ﷺ فلما جاء المشركون يوم الأحزاب نقضوا العهد. أما الكيفية التي نُقض فيها العهد وما السبب وراء ذلك فهو مثبت في المصادر التاريخية . التي ناقشت غزوة الأحزاب [الخندق] ، تلك التي وقعت في ذي القعدة سنة خمس من مهاجره عليه الصلاة والسلام حيث إنها وثيقة الصلة بقريظة ونقضها العهد وما آل إليه أمرها أخيراً .

ويتبين من الرواية التي قدمها ابن سعد عن وقعة الخندق أن زعماء يهود بني النضير الذين أُجلوا إلى خيبر ، هم الذين تزعموا حركة تخريب الأحزاب وجمعوا قريشاً وغيرها من القبائل العربية على محاربة المسلمين في المدينة . وفي غمرة استعدادات المسلمين لمواجهة الأحزاب ، حفروا خندقاً شمال المدينة فأصبحت محصنة من جهتها الشمالية ، أما بقية الجهات فهي محوطة بالمزارع والبنيان. وكانت قبيلة بني قريظة تقطن الجهة الجنوبية من المدينة ، ويفترض أنها مسؤولة عن الدفاع عنها. وقد استعار المسلمون من قريظة آلات كثيرة من مساح وكرازين ومكاتل يحفرون بها ال خندق. ولم يقلق المسلمون كثيراً على الجهة الجنوبية للمدينة فقد كان كعب بن أسد القرظي ، زعيم قريظة وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك وعاقده.

واستمرت مدة حصار الأحزاب للمدينة عشرين يوماً أو أقل . فقد قيل إنها بضعة عشر يوماً وقيل عشرين يوماً ، ويقال خمسة عشر يوماً ، وهذا الذي رجحه الواقدي . وكانت حالة الجو وأحوال المسلمين النفسية والمعاشية حينذاك في غاية السوء ، فكان حذيفة بن اليمان يقول : لقد رأيتنا في الخندق مع رسول الله ﷺفي ليلة شديدة البرد قد اجتمع علينا البرد والجوع والخوف.

ويظهر من بعض الروايات أنه لم يقع كبير قتال بين المسلمين والمشركين طيلة أيام الحصار ، إلا بعض المناوشات والمراماة المتقطعة إضافة إلى المبارزة الفردية المحدودة.

نقض بني قريظة للعهد :

يبدو أن الأحزاب استطاعوا إغراء يهود بني قريظة بالانضمام إليهم والغدر بالمسلمين فأصبح المسلمون بين فكي الأسد كما يقال فقد ذهب حُيي بن أخطب زعيم بني النضير إلى بني قريظة وحثهم على الوقوف بجانب الأحزاب ضد المسلمين . " فواثقهم وعاهدهم لئن انفضت جموع الأحزاب أن يجيء حتى يدخل معهم أُطمهم فأطاعوه حينئذ بالغدر بالنبي والمسلمين.

ومن ثم نقض كعب العهد الذي كان بينه وبين رسول الله ﷺ ودعا حُيي بالكتاب الذي كتب رسول الله ﷺ بينهم فشقه حُيي.

وفي هذه الأثناء علم رسول الله ﷺ أن قريظة ربما نقضت عهدها ، فقد أخبره عمر بن الخطاب ، أن بني قريظة نقضت العهد وحاربت. وجاء في رواية أخرى ، أن يهود بني قريظة مزقوا "صحيفة القضية" التي كانت بين رسول الله ﷺ وبينهم ونبذوا إلى رسول الله ﷺ بالحرب ، وتحصنوا.

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ، فقال : اذهب إلى بني قريظ ـــة ، فذهب ثم رجع فقـــال : يا رسول الله ، رأيتهم يصلحون حصونهم ويُدربون طرقهم ، و قد جمعوا ماشيتهم. وإمعاناً من رسول الله ﷺفي الروية وعدم أخذ القوم بالظن ، أرسل إلى بني قريظة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ليكلموهم . ولكن لما انتهي وفد رسول الله ﷺ إلى كعب ، زعيم قريظة وجدوا القوم قد نقضوا العهد . فناشدوهم الله والعهد الذي بينهم . فقال كعب : لا نرده أبداً ، قد قطعته كما قطعت هذا القبال ، قبال نعله.

إن خيانة قريظة للرسول والمسلمين مؤكدة بشهادة القرآن الكريم لذلك فليس هناك مجال للشك فيما أقدموا عليه ، لهذا فإنه في النهاية يجب التعويل على ما جاء في الق رآن الكريم في تصوير ما حدث ، فعندما عاد الوفد إلى رسول الله ﷺ وأخبره بحقيقة نقض قريظة للعهد ، وشاع الخبر في معسكر المسلمين ، وعظم البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، وحتى قال بعض بني حارثة يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو ، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج من المدينة . وخيف على الذراري والنساء، ورسول الله ﷺ والمسلمون وجاه العدو، لا يستطيعون الزوال عن مكانهم يعتقبون خندقهم ويحرسونه وتكلم قوم بكلام قبيح ، فقال مُعّتب بن قشير : يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن يذهب إلى حاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا.

ولقد صوّر القرآن الكريم المؤامرة الدنيئة التي حاكتها الأحزاب ضد المسلمين ، كما صوّر أبلغ تصوير الهلع النفسي الذي أحاط بهم حتى زاغت أبصارهم وبلغت القلوب الحناجر وتسرب إلى نفوس بعض ضعاف الإيمان منهم أي المنافقين سوء الظن بالله ، إذ قال تعالى : إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ه نَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا [الأحزاب:10 - 12]

وقد اختلف المفسرون في تحديد المقصود بالذين جاؤوا من فوق المسلمين ومن أسفل منهم ، فأورد الطبري عدة أقوال منها ، عن مجاهد ، أن المراد بالذين جاؤوهم من فوقهم عُيينة بن بدر في أهل نجد ومن أسفل منهم أبو سفيان ، وواجهتهم قريظة . ونقل الطبري عن ابن إسحاق أن الذين جاؤوهم من فوقهم: قريظة والذين جاؤوهم من أسفل منهم قريش وغطفان . وجاء في رواية عن حذيفة بن اليمان قوله : لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة أسفل نخافهم على ذرارينا.

وصاحب هذه الحال من الخوف والفزع التي ألمت بالمسلمين جراء تكالب الأحزاب عليهم في تلك الساعة العصيبة تسلط يهود بني قريظة عليهم والتحرش بهم وتهديد آطامهم التي فيها نساؤهم وأولادهم وتهديد طرقهم وسابلتهم ، يضاف إلى ذلك ما ذكرته بعض المصادر المتأخرة أن بني قريظة كانوا يمدون قريشاً في أثناء حصاره ا للمسلمين بالتمر والشعير وحتى علف الماشية.

وهكذا في هذا الجو النفسي المشحون بالقلق والخوف ، وظهور الغدر من حلفاء الأمس ، بني قريظة، وظهور المنافقين ، على حقيقتهم ودعوتهم السافرة بالعودة إلى منازلهم بالمدينة ومجاهرتهم بتكذيبهم الله ورسوله ، بقولهم إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا [الأحزاب :12]. وأمام الإصرار العنيد لقريش وحلفائها على منازلة المسلمين وكسر شوكتهم ، أمام ذلك كله شعر الرسول الكريم بهول الموقف وثقل المسؤولية التي تتطلب حماية المعتقد وتأمين سلامة المجتمع ، ولذلك فقد قرر أن يجرب " سلاح الدبلوماسية " لعله يفلح في تفريق جموع الأحزاب ، فبدأ بمفاوضة زعماء غطفان مثل عُينية بن حصن والحارث بن عوف على أن يعطيهم نصيباً من تمور المدينة على أن يرجعوا بقومهم ويخذلوا بين الأحزاب . ويبدو كذلك أن أمر مفاوضة رسول الله ﷺ لهم لم تعد سراً فقد علمت قريظة بذلك ، وقيل إن أحد زعمائها ، الزبير بن باطا، قال : " وهذه غطفان تطلب إلى محمد أن يعطيها بعض تمر الأوس وتنصرف . وما دامت

قريظة علمت بالأمر فإن ما حدث لم يعُد سراً فلابد أن خبر المفاوضة وصل إلى قريش وبقية حلفائها وأن شعوراً من عدم الثق ة سرى في نفوس جميع قادة الأحزاب ، ومن هنا ضعفت معنوياتهم واستعدادهم القتالي .

وفي هذه الظروف برز نُعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي الذي قيل إنه أسلم ليالي الخندق سراً دون علم قومه ، وأن رسول الله ﷺ كلفه بتفريق كلمة الأحزاب قائلاً له : " إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة ". ويظهر أن نُعيماً نجح في مسعاه وحقق رغبة رسول الله ﷺ في تفريق كلمة الأحزاب .

قال ابن سعد في روايته عن أبي نجيح : إذ جاء نُعيم بن مسعود الأشجعي وكان يأمنه الفريقان جميعاً، فخذل بين الناس فانطلق الأحزاب منهزمي ن من غير قتال ، فذلك قوله : وكفى الله المؤمنين القتال.

ومهما تكن خطورة الدور الذي قام به نعيم بن مسعود في تفريق شمل الأحزاب ومهما قيل عن النجاح الذي أصابه في مسعاه ، فإن مما لا شك فيه أن إرادة الله غالبة إذا اقتضت إرادته تشتيت الأحزاب وردهم عما أرادوا . قال تعالى مخاطباً المؤمنين : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودً ا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ [الأحزاب:9].

فلما أصبح رسول الله ﷺ بالخندق أصبح وليس بحضرته أحد من العساكر ، قد هربوا وذهبوا وانقشعوا إلى بلادهم ، وأذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الانصراف إلى منازلهم فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك.

حصار بني قريظة :

لم يكد النبي ﷺ يصل إلى بيته في المدينة، ويضع سلاحه ويغتسل حتى أتاه الأمر الإلهي بالمسير نحو قريظة، حدثت عائشة رضي الله عنها : أنه " لما رجع النبي ﷺ من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال : قد وضعت السلاح . والله ما وضعناه ، فأخرج إليهم . قال : (فإلي أين ؟) ؟ قال : ها هنا ، وأشار إلى بني قريظة ، فخرج النبي ﷺ إليهم.

ولئن كان قرار مواجهة الأحزاب قراراً دفاعياً اتخذه رسول الله ﷺ لحماية المدينة من كيد قوى الشر المتحالفة فإن أمر المسير إلى قريظة، كان أمراً إلهياً ولا دخل لمشيئة النبي ﷺ فيه ، حيث إنه منفذ لمشيئة الله ، لذلك فقد أمر مناديه أن ينادي في أرجاء المدينة " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ". وجاء عند مسلم عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ نادى في الناس يوم انصراف الأحزاب "أن لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة.

وقدّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة ، . وتلاحق به الناس . وكان ذلك في يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة ، فدعاهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ، فأبوا أن يجيبوه إلى الإسلام فحاصرهم خمسة عشر يوماً ، ثم انصرف يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس للهجرة.

يتبين من بعض الروايات أنه لم يحدث قتال مباشر بين المسلمين واليهود إلا المراماة بالنبال والحجارة من بعيد ، إضافة إلى الحصار الذي ضربه المسلمون على حصون بني قريظة حتى أذعنوا للاستسلام .

ونتيجة لتضييق المسلمين الحصار عليهم ويأسهم من نجدة الأحزاب لهم ، قررو ا المفاوضـــات مع النبي ﷺ رجاء حفظ دمائهم ، فأنزلوا نباش بن قيس ، فكلم رسول الله ﷺ ساعة وقال : يا محمد ، ننزل على ما نزلت عليه بنو النضير ، لك الأموال والحلقة وتحقن دماءنا ، ونخرج من بلادكم بالنساء والذراري ، ولنا ما حملت الإبل والحلقة ، فأبي رسول الله ﷺ ، فقالوا : فتحق دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل ، فقال رسول الله ﷺ لا ، إلا أن تنزلوا على حكمي.

استسلام بني قريظة :

فلما أصبح يهود بني قريظة في اليوم التالي ، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بأسراهم فكتفوا رباطاً ، وجعل على كتافهم محمد بن مسلمة ، ونحوا ناحية ، وأخرجوا النساء والذرية من الحصون ، فتواثبت الأوس ، فقالوا : يا رسول الله موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت . فقال لهم الرسول : " ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم " ؟ قالوا : بلى . قال: فذاك إلى سعد بن معاذ.

فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فأتي على حمار ، فلما دنا من المسجد ، قال رسول الله ﷺ للأنصار : "قوموا إلى سيدكم ، أو خيركم " فقال : " هؤلاء نزلوا على حكمك " . فقال : تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم . فقال رسول الله ﷺ : " قضيت بحكم الله " ، وربما قال : بحكم الملك ". وجاء في حديث آخر رواية عن عائشة أم المؤمنين ، أن رسول الله ﷺ أتى بني قريظة فنزلوا على حكمه، فرد الحكم على سعد ، قال : فإني أحكم فيهم : " أن تقتل المقاتلة ، وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم.

وجاء في رواية أخرى عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ حاصر بني قريظة خمساً وعشرين ليلة . فلما اشتد عليهم البلاء ، قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ. فقالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ فقال لهم : انزلوا على حكم سعد ، فبعث رسول الله ﷺ إلى سعد فلما جاء قال له: "احكم فيهم " ، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم . فقال له : رسول اللهﷺ: لقد " حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله ".

وبعد صدور حكم سعد بن معاذ ، استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث ، امرأة من بني النجار ، ثم خرج إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق.

واختلفت المصادر في عدد من قتل من بني قريظة ، فقال موسى بن عقبة زعموا أنهم كانوا ستمائة مقاتل. وجاء عند ابن إسحاق من دون سند أنهم ستمائة أو سبعمائة . والمكثر لهم يقول بين الثمانمائة والتسعمائة.

ونقل لنا أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قوله : أن بني قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فحكم أن يقتل رجالهم ويستحيي نساءهم يستعين بهم المسلمون . فقال رسول اللهﷺ: أصبت حكم الله فيهم، وكانوا أربعمائة فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات.

هذه الرواية الأخيرة ، أي رواية أبي الزبير عن جابر بن عبد الله لا إشكال في سندها ولكن الجملة الأخيرة في الرواية قد تكون موضع تساؤل ، فعبارة " وكانوا أربعمائة " ليس واضحاً هل هي جزء من حديث جابر بن عبد الله أم أنها زيادة في الإيضاح أدخلها أبا الزبير ؟

وقريب من رواية جابر ما نقله ابن هشام عن أبي عمرو المدني، أنه لما ظفر رسول الله ﷺ ببني قريظة أخذ منهم نحواً من أربعمائه رجل من اليهود فأمر بأن تضرب أعناقهم ،

وهي رواية - إضافة إلى انقطاع سندها - لا تخلو من إشكال فيما يتعلق بعدد من قُتل من يهود بني قريظة ، فإذا كان الرسول ﷺ قد أخذ منهم أربعمائة وأمر بضرب رقابهم فكم يكون عدد الذين منّ عليهم . ثم أين حكومة سعد بن معاذ التي تحدثت عنها مصادر السيرة والسنة على السواء ؟

أما الرواية الأخيرة بصدد هذا الموضوع فهي رواية الزهري ، قال ابن زنجويه : " ثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث بن سعد ، حدثني عُقيل ، عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ غدا إلى بني قريظة ، فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ فقضى بأن يقتل رجالهم ، وتقسم ذراريهم وأموالهم ، فقتل منهم يومئذ أربعون رجلاً ، إلا عمرو بن سعد [سعُدى] ؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يأمر بالوفاء وينهى عن الغدر ؛ فلذلك نجا.

ومما قد يشجع على قبول رواية الزهري هذه ، أنها جاءت متصلة السند ولم يقدح المحدثون في رجالها وعلى وجه الخصوص عُقيل بن خالد راوية الزهري المباشر إضافة إلى أن العدد " أربعون " ربما يكون أقرب إلى الواقع . ويجب كذلك ملاحظة سهولة تحريف العدد من " أربعين " إلى الأربعمائة . وإذا أعيد النظر في رواية أبي عمرو المدني المتصلة بأخذ النبيﷺ أربعمائة من اليهود ، وقوبلت مع رواية الزهري ، جاز الفرض أن رواية أبي عمرو قد تعرضت للتحريف فأصبح الأربعون أربعمائة ، و هذا أمر ليس نادر الحدوث. علماً أن القول " فأخذ منهم أربعين " أقرب إلى المنطق من الأربعمائة إذ أن ذلك ربما ينصرف إلى عدد القياديين منهم ليس غير .